جاك بيرك والأدب العربي المعاصر
شذرات الاستطراد وعتبات التخصّص

أ.د. عبد العزيز شويط
جامعة محمد الصديق بن يحي/ جيجل

الملخص:

عادة يكون اهتمام المستشرقين الغربيين بالأدب العربي القديم وخاصة الشعر منه، باعتباره مصدر الإبداع والإلهام والمعرفة الأول عند العرب، قد حاز على الشرعية الجمالية والفنية، وقلما يهتمون بالأدب العربي الحديث والمعاصر، ولكن المستشرق وعالم الاجتماع الفرنسي الكبير جاك بيرك Jacques Berque حقق الاستثناء والتميز هذه المرة من خلال اهتمامه إلى جانب الأدب العربي القديم بالحديث والمعاصر منه شعرا ونثرا، حيث أنتج العديد من المقالات والمحاضرات، وحتى الكتب التي تناولت هذا الأدب، ومثلما درس أدب طه حسين والعقاد تطرق حتى إلى بدر شاكر السياب وأدونيس وغيرهم من الشعراء والمسرحيين العرب المعاصرين في إسهام غزير منه لدراسة الأدب العربي المعاصر.

Abstract

Orientalists' interest in old Arabic literature, particularly poetry as being the Arabs' prime source of creativity, inspiration and knowledge, has usually won aesthetic and artistic legitimacy, paying thus little attention to modern and contemporary Arab literature. However, the great French Orientalist and sociologist Jacques Berque made the exception by interesting himself in both old and contemporary Arabic literature, prose and poetry alike, producing many papers, lectures and even books addressing contemporary Arabic literature. He studied the literature of Taha Hussain and Al3akkad as well as that of Badr Shakir Essiab and other Arab contemporary poets and playwrights in a significant contribution of his to the study of contemporary Arabic literature.

Key Words: Jacques Berque- Criticism- Contemporary Arabic literature- Social method.

الكلمات المفتاحية : جاك بيرك / النقد / الأدب العربي المعاصر / المنهج الاجتماعي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

توطئة:

كثيرا ما يفضل جاك بيرك Jacques Berque أن ينسب إلى الاستعراب، فهو (هذا المصطلح) كثيرا ما يستخدمه حين يتحدث عن زملائه ممن يشتركون معه في العلاقة مع الشرق ومع البلاد العربية، مما يدل على أن هذا الوصف ينسحب عليه هو بدوره، أمردّ ذلك أن الرجل لم يكن وافدا على البلاد العربية، فهو مولود بالجزائر (فرندة – تيارت)؟ أم لكون الرجل قضى معظم وقته متنقلا بين البلاد العربية مشرقها ومغربها؟ أم مدّ ذلك أن الرجل يزعم العمق في فهم الذات العربية كنتاج لطول الامتزاج والاختلاط بالعرب؟ المهم أن لجاك بيرك انتماء يجعل له المسوغ للحديث عمّا تنتجه هذه الأرض من ثقافة ومن إنسان بما في ذلك الموروث الثقافي والتاريخي والديني لهذا الإنسان الذي يشعر جاك بيرك بالانتماء الإنساني والعلمي والمنهجي إليه، كما لا ينكر في المقابل انتماءه الغربي مهما حاول محاوروه تصنيفه ضمن زاوية معينة، بسبب عيشه الطويل في البلاد العربية، فهو غربي بامتياز بقدر ما هو مستعرب بامتياز أيضا.

ولذلك فقد امتدت يد جاك بيرك المستعرب والمستشرق في آن معا ليس إلى حياة الإنسان العربي الاجتماعية والسياسية فحسب، بل وتناولت ثقافته وموروثه الديني والثقافي، وحتى الفنّي والجمالي، ولم تغفل أبدا هذا الحاضر الفني والجمالي والأدبي كما لم تهمل حاضره وواقعه السياسي والاجتماعي قبل نكسته العربية وبعدها. يبرز ذلك في دراساته المتنوعة للأدب العربي شعره ونثره، بل والتعمّق في تحليل هذا الأدب عبر منهج اجتماعي يربط بين المقول والسياق التاريخي والاجتماعي لهذه الأمة في علاقتها بماضيها (الطابع الزمني)، وفي علاقتها بجيرانها (الطابع الجغرافي) وأبرز جيران للعرب هم الجيران الغاصبون أو الجيران الداخلون المتدخلون والفاعلون في الحياة العربية من خلال الاستعمار والحماية والعلاقات التجارية والعلمية.

1/ شخصية بيرك الناقد للأدب العربي المعاصر:

مهما تكن الأسباب المرصودة من قبل الدارسين والباحثين بخصوص صعوبة البحث في اهتمام المستشرقين بالأدب العربي الحديث والمعاصر معقولة وتؤدي إلى إثبات هذه الحقيقة، إلا أنّ واقع البحث قد أفضى إلى الكثير من النتائج الطيبة في هذا المجال، ذلك أنّ المواد على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

نطاق واسع من الانتشار، ويمكن حيازتها بسهولة ما دامت وسائط الانتقال على جانب كبير من الوفرة، وأعني بذلك الترجمة والتأليف والنشر، "وعلى الرغم من تلك الأسباب وهذه التساؤلات، فإنّ الباحث الموضوعي يجد أنّ اهتمام الاستشراق، بجانب قيامه بترجمات الأعمال الأدبية لأدباء العرب المعاصرين إلى اللغات الأخرى، يزداد يوما بعد يوم عناية بالأدب العربي الحديث واتجاهاته الفكرية والفنية على السواء... وإذا كان الأمر كذلك، فلنبدأ بالإشارة إلى بداية اهتمام الاستشراق بالأدب العربي الحديث حيث يتألق في الأفق اجناتيوس كراتشوفسكي Ignati Ioulianovitch Kratchkovski رائدا في هذا الميدان بين المستشرقين جميعا. وقد كان سببا في أن تظهر" في روسيا اليوم نهضة وثابة واهتمام كبير بالأدب العربي الحديث، وكان أوّل من درس في الغرب البلاغة العصرية درسا مطردا، ونشرت فاسيليفا Vassileva تحت إشراف كراتشكوفسكي مختارات من الأدب المصري الحديث، صدّر بمقدمة نفيسة عن تطور البلاغة العربية في أواخر القرن التاسع عشر" ويبدو لنا من تتبع نشاطه العلمي أنه "عني عناية خاصة بالأدب العربي الحديث، وانتدب أستاذا بجامعة القاهرة، ثم نشرت كلثوم عودة فاسيليفا المنتخبات لدراسة الآداب العربية منذ سنة 1880 إلى سنة 1925 التي تناولت فيها أديب إسحاق وجورجي زيدان وعبد الرحمن الكواكبي وأمين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وبعدئذ أضافت إلى دراستها الأدباء طه حسين وتوفيق الحكيم وإبراهيم المازني وذا النون أيوب وعبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي ويوسف إدريس ومواهب الكيالي وصفي النبي وغيرهم. وهل نحتاج إلى دليل آخر إذا علمنا بأنه" قد صدر للأدباء العرب 124 كتابا يناهز عدد نسخها خمسة ملايين ونصف مليون في 30 لغة من لغات الاتحاد السوفيتي" المختلفة، مما يدل على أن أصحاب هذه المدرسة الاستشراقية قد استطاعوا أن يقفوا على دقائق اللغة العربية ويتذوقوا جمالها، وينفذوا إلى أسرارها" [1]، هذا على مستوى الإبداع وعناية المستشرقين بترجمة ونشر الأعمال الأدبية العربي بلغات العالم الغربي، أما بخصوص البحث والنقد والدراسة فالمجال جد مشابه، ليس فقط بالنسبة للمستشرقين الألمان والروس والفرنسيين والإنجليزيين وإنما حتى بلغات أخرى أقل انتشارا ودولها أقل نفوذا في العالم العربي، ومنها دول جنوب شرق آسيا وغيرها، وكدليل على الاهتمام من قبل الدارسين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

بالأدب العربي المعاصر يمكن أن نتمثل بالدارسين الروس وعلى رأسهم المثال الأبرز: كراتشكوفسكي، فقد "حاول كراتشكوفسكي أن تكون دراسته" في الأدب العربي الحديث" بقدر الإمكان، جاهدا أن يظهر فيها نهضة العرب الحديثة، إذ "لا يفرق مطلقا بين الآداب العربية وبين الأمة التي أنتجت هذه الآداب" ويرى أنه ليس من السهل مطلقا أن نعثر على آثار النهضة الأدبية قبل القرن التاسع عشر، وحتى إذا صادفنا بعض المحاولات للتجديد في الأدب فإنها فردية ظهرت بين الأقليات المسيحية يتصدرها المطران الباروني جرومانوس فرحات..."[2] ثم تلاه العديد من المستشرقين يدرسون الأدب العربي ويترجمون نصوصه النثرية والشعرية مما تحفل به المطابع ودور النشر والصحف والمجلات.

والحق أن جاك بيرك من المستشرقين الأوائل الذين اعتنوا بالأدب العربي الحديث والمعاصر درسا وتحليلا ونقدا، ولعل السبب في هذا الاعتناء بالأدب هو إتباع عملية الترجمة لنصوص الأدب بهذا النقد المتوخي الشرح والتحليل وفق مناهج وآليات إجرائية منهجية، ولذلك كان المستشرقون هم "الذين أكبوا أيضا على ترجمة المؤلفات في العلوم والصناعات. ولم تقتصر على ترجمة القرآن الكريم ودراسته إلى جانب الفقه بل امتدت الدراسة إلى الفلسفة والعلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضية والأدب والشعر والقصة والفن والمعمار والموسيقى"[3] وذكر القصة منوط بالحداثة الأدبية وبالزمن الحديث والمعاصر بطبيعة الحال ما دامت القصة العربية ترتكز على تقنيات السرد القصصي الغربي الحديث والمعاصر.

يتحدث جاك بيرك عن مجتمع العالم الثالث، وهو يقصد العالم العربي في مقال له ينطلق فيه من القاهرة العربية فيقول: " هذا العالم الذي يحاول أن يصنع تاريخه، دون أن يتنكر لنفسه، بالغ كثيرا فعمل في مقام اللعب ولعب في مقام العمل. ولعله منح للغته سيطرة على الأشياء لم تعد فيها، ومنح بالمقابل للأشياء سيادة ليست لها على القيم أو على الرمز"[4]، وهو ما شغل المستشرقين فيما يتعلق بالأدب العربي القديم ذي الارتباط العضوي باللغة العربية، وهو ما يفتح الشهية أمام مستشرقي ومستعربي الوقت الراهن ليهتموا بالأدب العربي الحديث والمعاصر، إنْ ليس لنفس السبب، فعلى الأقل لتتبع الظاهرة الأدبية العربية المعاصرة في علاقتها بالبيئة، وفي علاقتها بالتطور اللغوي عن اللغة الأم وحتى في علاقته بالغرب المستعمر.ولعل أبرز سبب هو

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

محاولة استكشاف الطابع العجائبي والسحري للأدب العربي المعاصر الذي ينتظر منه أن يحاكي سحر الشرق وبالذات سحر ألف ليلة وليلة من حيث التاريخ ومن حيث الحلم. يقول جاك بيرك عن اللغة والقصيدة في معرض حديثه عن مجتمعات العالم الثالث: "إنها تخلط الكلمة بالتحليل والتاريخ بالحلم. أو بالأحرى تطرد لغتها التحليل، وتطرد العقلنة القصيدة."[5] وهو ما يجتذب الكثير من المستشرقين لمحاولة استكشاف الثابت والمتحول في هذا النص الأدبي العربي، من حيث علاقته بالتاريخ كما سنرى فيما يأتي مع جاك بيرك والطابع الأسطوري في شعر السياب وأدونيس ونازك الملائكة ولما لا حتى عبد الوهاب البياتي؟

الأكثر اقترابا من محاريب اللغة العربية ممثلة بالنص الأدبي حتى لا أقول الأدب ممثلا باللغة العربية، هم المستشرقون أو المستعربون ممن خالطت أجسادهم وأرواحهم قبل ألسنتهم المجتمعات العربية والإسلامية، لأن الاحتكاك واللغة كثيرا ما تكون عائقا أمام معرفة أدب الآخر، ولذلك يشهد بيرك أن اللغة عنصر رئيس في فهم الآخر وتذوق أدبه، يقول: "وأعتقد أنه كان من حظي أن أفهم وأفهم، لأنني مارست في داخلي جدلية اللغتين، العربية والفرنسية"[6] فقد أصبحت ممارسة اللغة سبيلا إلى شرعنة الفهم، والفهم المفضي إلى التذوق طبعا.

تحت عنوان: "أندلسيات مستعادة" يكتب جاك بيرك عن نص في غير اللغة القومية، ومع ذلك يعالج ظاهرة قومية أو بالأحرى ينتصر لقضية قومية، حتى ليمكن– لولا الاختلاف اللغوي – أن نعد هذا النص عربيا يتحدث عنه جاك بيرك المستشرق، لولا أن ليس له من القومية إلا الانتصار، فلا اللغة ولا الشاعر يمثلان للقومية العربية بصلة، يقول جاك بيرك:"ظهرت قصيدة مجنون إلزا في عام 1963. وبوسعنا الافتراض بأن الشاعر كتبها في المرحلة التي كان فيها مصير المغرب العربي يقرر بين الدم والألم. ففي ذلك الوقت حركت غضبة الاستلاب، بالمعنى الذي نحرر فيه استحواذا شيطانيا على أن لا يكون ذلك اغترابا هيغليا، حركت شعبا مسلما ضد محتل جاوز القرن في احتلاله، والذي كان خطره في جاذبيته أعظم من الكوارث التي جلبها. وهل يسعنا القول بأن ذلك يمثل من طرف عرب المغرب فتحا جديدا؟ والعكس بالعكس هل يسعنا القول بأن الجزائر التي سميت فرنسية بما هي محاصرة و بما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

قضي عليها. تشبه غرناطة في القصيدة؟"[7] وفي هذه الحالة يستحضر الشاعر حادثة تاريخية قديمة ليعبر بها عن واقع مرير تمر به الدول المغاربية المستعمرة .

في معرض حديث جاك بيرك عن الأثر العربي الفني واللغوي في شعر أراغون وخاصة ما تعلق منه بأثر غزل مجنون ليلى النجدي في شعر أراغون بغرناطة، يقول جاك بيرك معلقا عن بيت شعري لأرغون يقول فيه: "ذلك هو الأمر: ذكرى الغد."

وليس من قبيل المصادفة الاعتباطية أن أكثر من شاعر عربي معاصر، يلغي الحاضر المر باسم "الزمن المحطم" (لعلي سعيد اسبر (أدونيس) أو ينشد على شاكلة خالد البرادعي" صورة الماضي في الغد" والغد في الأمس"[8] وهنا يظهر المنهج الذي ارتضاه بيرك في دراسة الشعر العربي المعاصر، وهو المنهج المقارني، طبعا طبقا لما أتاحه له تحكمه في اللغتين الفرنسية والعربية، فقد صرح في نص مرّ بنا من قبل بأنّه قد أوتي من الحظ في الفهم الكثير لأنه يتقن اللغتين العربية والفرنسية.

كثيرة هي المصادر التي نستعين بها في معرفة فكر ورؤية جاك بيرك للأدب العربي، والمعاصر منه تحديدا، سواء من كتبه وعلى رأسها جميعا "العرب بين الأمس واليوم" أو حتى "إعادة قراءة القرآن الكريم" وحتى العديد من المقالات المنشورة في المجلات العربية، ولكن الفضل يرجع في هذا للمترجمين الذين قدموا لنا هذه المقالات باللغة العربية التي قربت نشرياتها بيننا وبينها، لأن معرفة بيرك باللغة العربية لم تساعد في هذا التقريب بقدر ما ساعدت على فهمه للنصوص الأدبية العربية وتقريبها من فهم الأوروبي، ولذلك ركّز الرجل في تصريحه السابق بخصوص اللغة على الفهم وليس على التفاعل والتعامل مع العرب بقدر ما ساعده على التفاعل التقارب مع النصوص، لأن الأول سيخصصه للأوروبي بلغة فرنسية، والثاني خصصه للنصوص العربية من خلال الفهم وحسب.

لم تكن– على الإطلاق– أربع مقالات كافية للحكم على مقاربة جاك بيرك لدراسة الأدب العربي المعاصر، هذه المقالات تتراوح بين الطول والقصر، وتتوزع على النثر وعلى الشعر، المقالتان الطويلتان وردتا الأولى بعنوان: "في الأدب العربي المعاصر" ترجمة عبد الصبور شاهين، منشورة في مجلة المجلة المصرية والثانية: "نحن وطه حسين" ترجمة مهاة فرح الخوري،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

منشورة في مجلة المعرفة السورية. والمقالتان القصيرتان: الأولى بعنوان "دياليكتيكية الذات والطبيعة (قراءة في شعر السياب وأدونيس) ترجمة خالدة سعيد منشورة في مجلة مواقف اللبنانية، والثانية بعنوان "أين المسرح العربي من عالم اليوم؟" منشورة في مجلة شعر اللبنانية أيضا. وهذه المقالات هي مجال تحرّكنا للاقتراب من منهج وفهم جاك بيرك للأدب العربي المعاصر، كيف يريد أن يقدمه للغربي المعاصر؟.

الباحث الاجتماعي في حاجة إلى النصوص المحيلة على الظواهر، وجاك بيرك باحث اجتماعي ومستشرق يرى في النص الأدبي العربي صورة عاكسة للمجتمع العربي، بل هو الظاهرة الأصدق من جميع الظواهر، يقول عن ملابسات أحد بحوثه: "كان بحثي الذي أنجزته كما ينبغي انطلاقا من الحدث والوضع والنصوص، يصدر عن علاقة ذات أطراف ثلاثة: حياة شخصية أسكت عنها هنا، وحركات واقع عنيف، ومغامرات المعقولية في العلوم الاجتماعية. ومنذ البداية، رافقني القلق والغضب. ففي الخمسينيات والستينيات نما في الشرق القلق، القلق في هذه الأزمنة الحديثة، ولعلي قدّمت وصفه الأول في أثناء سهرة عاصفة في السوربون.لم يكن نشأ آنذاك علم اجتماع للشرق المعاصر. فعندما كنا نريد توثيق الملاحظة العينية بشهادات مكتوبة، كان لابدّ من الرجوع إلى الشعراء والروائيين. لكن يا لها من شهادات! (الجثة المطوقة) لكاتب ياسين، (البومة العمياء) لصادق هدايت، تليهما (أغاني مهيار الدمشقي) لأدونيس: أيّة رسالة دكتوراه مثّلت طاقة إعلامية كالطاقة التي مثّلتها أعمالهم؟ لقد بدا لنا قلق الشخص والجماعة معا كأنه، من العمل الجماعي، رأسه الباحث"[9] مما يعني أن بيرك حين يدرس الظواهر الاجتماعية في البلاد العربية، يجعل من النص الأدبي المعاصر دليلا عليها، ووثيقة هامه في الحكم عليها، والعكس بالعكس، حين يدرس النص الأدبي يجعل منه انعكاسا للبيئة وللمجتمع، ويستعين كثيرا بالسياقات الاجتماعية وحتى التاريخية لفهم هذا النص الأدبي، ولذلك سنراه فيما يأتي يلحّ كثيرا على المذاهب الأدبية وعلى التيارات والعوامل الاجتماعية وما شابه ذلك في تحليل الظاهرة الأدبية، دون أن يغفل شيئا من علم النفس وبعضا من معطيات الأنثروبولوجيا وإلى غير ذلك مما ستتيحه له معرفته الاجتماعية من إيديولوجيا وعلم الأديان وحتى من الأسطورة، بل ويجعل من النص الأدبي العربي– وهذه مزيّة – متصلا حاضره

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

بالتاريخي منه، أليس هو القائل: "كان اختلاطي مع العرب يستميلني إلى بحثهم عن الهوية، وتسليمهم الأولي بالأصالة"[10] ؟ وما النص الأدبي إلا باحث عن هويته من خلال أصالته المفترضة، ومن خلال هوس أصحابه بالبحث في الهوية والأصالة التي هي عندهم بمستوى التسليم وفي درجته.

2/ جاك بيرك وبقية أجناس الأدب العربي الحديث والمعاصر:

بالإضافة إلى المقال الذي تحدث فيه جاك بيرك عن الشاعرين العربيين المعاصرين: بدر شاكر السياب وعلي أحمد سعيد (أدونيس)، وهو ما سنتركه لما يمكن تسميته منهجيا بالتطبيق، نلاحظ أن جاك بيرك له مساهمات دراسية جد هامة في النثر العربي، وتكمن أهميتها في العمق الفكري الذي قارب به هذه النصوص الأدبية تحليلا ومناقشة، وذلك من خلال: مقاله في مجلة المجلة المصرية الموسوم بـ" في الأدب العربي المعاصر"[11]، ومقاله المنشور في مجلة المعرفة السورية والموسوم بـ" نحن وطه حسين"[12]، بالإضافة إلى مساهمته في دراسة المسرح العربي المعاصر من خلال مقاله الموسوم بـ" أين المسرح العربي من عالم اليوم"[13] وبذلك يكون جاك بيرك قد مسّ تقريبا جميع أجناس الأدب العربي المعاصر، من شعر ورواية وقصة ومسرح وحتى سيرة ذاتية وغيريه، من خلال ما يقوله في مؤلفات طه حسين المتعلقة بهذا الجنس الأدبي.

ففي مقاله "نحن وطه حسين" يحاول جاك بيرك– وهو شديد الإعجاب بهذه الشخصية– أن يلخص لنا دور طه حسين في تقريب العلاقة بين الشرق والغرب، بين العرب والغرب من جهة الثقافة وخلق نوع من التقارب الذي يسميه جاك بيرك بالروحي بين العرب والغرب، ومن خلال ذلك التشابه الكبير بين ما فعله طه حسين وما يفعله جاك بيرك بين الشرق وفرنسا تحديدا، وهو المستشرق والمفكر الفرنسي، مع الاعتراف بأن طه حسين قد نجح فيما لم ينجح فيه معلموه من الغربيين في هذا المسعى، وهو مسعى التقريب في حياته وبعد وفاته في نظر جاك بيرك، هذا وإن كان بيرك يقصد بـ (نحن) الواردة في عنوان المقال (نحن وطه حسين) المجال الكوكبي بدل المجال الغربي، هل يعتقد أن الغرب هو الكوكب باعتبار مركزية الفكر الغربي وباعتبار بيرك غربيا؟ ربما. ولذلك يعرض بيرك في هذه الدراسة عن طه حسين إلى

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

حياته في مسكنه وفي مدرسته، ويتناول علاقته بمجتمعه وبوظيفته الأولى كإداري موظف، الوظيفة التي فقدها سنة 1944 ثم بوظيفته الثانية كوزير في حكومة الوفد.ثم يخوض بيرك في إنتاجه الأدبي في المرحلة الأربعينية والخمسينية من حياته، وما أسفرت عنه من أعمال عظيمة: ك(الأيام) و(المعذبون في الأرض) والدراسات الاجتماعية في "جنة الشوك" و"جنة الحيوان" أو "حديقة الحيوان" و"مرآة الضمير الحديث" الذي يعده بيرك عملا رائعا، ثم "الفتنة الكبرى" و"على هامش السيرة " وبعدها شغله كأستاذ وانتخابه عميدا واستقالته وتقاعده على إثر ضجة كتابه "الشعر الجاهلي".

يوازن بيرك بين طه حسين والعقاد في علاقة كل منهما بالسلطة وهي علاقة وإن قامت على إغضاب طه حسين للسياسيين والحكام، إلا أنها لم تكن متشنجة وصدامية إلى درجة دخول السجن كما حدث مع العقاد، والدليل على ذلك معارضة القصر والسلطة عموما على انتخابه عميدا للكلية وحتى نقيبا للصحفيين.

كما يوازن بيرك بين طه حسين وبقية الوزراء وحتى الملك في سفرياتهم خارج البلاد، حيث كان أولئك يرتادون الكازينوهات وكان هو ينتج الأدب والفكر في غرف الفنادق، قاصدا هذا التباعد (والمصطلح لبيرك) عن وطنه حتى يجدد روح الإبداع. ولعل من نتائج هذا السلوك كتاب "مع أبي العلاء في سجنه" ويعرج بيرك في حديثه عن طه حسين على مسألة في غاية الأهمية؛ وهي التنبؤ في الأدب معتبرا "المعذبون في الأرض" إن لم يكن تنبأ طه حسين بالثورة المصرية، فهو تنبأ بغضب الشعب، ولذلك من البديهي أن تكرم الثورة طه حسين، وأن تجعل منه أحد أدرعها وممثلا لها في الاجتماعات الدولية. وإن لم يتعد التمثيل الخارجي مستبعدا عن الفاعلية الداخلية حتى غدا في إجازة لدى الجمهورية مثله مثل بقية المفكرين الذين أحيلوا على الهامش، على الأقل في حالة طه حسين حافظت على كرامته صحته التي بدأت تتدحرج ومع ذلك رأيناه في هذه المرحلة ينتج كتاب" الشيخان".

لطالما قدم جاك بيرك نقدا لطه حسين، ولذلك رأيناه يحتفي كثيرا بأعماله فيصفها بالعظيمة تارة وبالرائعة تارة أخرى، ومع ذلك فهو يصفها في أحايين أخرى بالتقهقر، كما يقول عن وضعيته بعد الثورة المصرية التي مهما كرمته وكلفته بمهمات وأعمال، ولكن بعد ماذا؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

بعد أن:" تأخرت صحته كثيرا وتعبت قريحته تعبا ملحوظا. فالجزء الثالث من مؤلفه "الفتنة" (الشيخان) أدنى بشكل واضح من الجزأين الأولين. وماذا بالنسبة لمرآة الإسلام؟ إنه شرح للقرآن أكثر قبولا "كتدبير" بالنسبة للمقصود منه...بيد أن لهذا المؤلف قيمة دينية أكثر من القيمة الأدبية"[14]، وهي قراءة تقييمية لعمل أدبي أنتجه طه حسين، وأخرى تفسيرية لعمل آخر من أعماله، أو لنقل تصنيفية لها حسب موضوعها ومضمونها.

كثيرا ما يغوص جاك بيرك في هذا التصنيف، ولكن هذه المرة ليس من حيث الموضوع والمجال المعرفي بالنسبة للدراسات الفكرية لطه حسين، وإنما من حيث الأجناس الأدبية في أعمال طه حسين تحديدا، من مثل كتابي"الأيام" و"على هامش السيرة" بين تاريخ الإسلام وفن السيرة الذاتية. وبيرك يدرك أن هذا التصنيف قد سبقته إليه تلميذة طه حسين سهير القلماوي... وإلى غير ذلك مما تضمنته هذه الدراسة لبيرك عن طه حسين. يقول جاك بيرك: "وإذا ما حاولنا اليوم تصنيف أعمال طه حسين جملة، كما سعت إليه تلميذته السيدة سهير القلماوي التي تسمي نفسها بتواضع" أجمل كتبه" فإننا نقع في شيء من الحيرة. ذلك أن هنالك بعض الجرأة في تصنيف مؤلف" على هامش السيرة" في تاريخ الإسلام، وليس صحيحا أن نصنف هذا المؤلف أو ذاك في فئة سيرته الذاتية في حين تظهر المجادلة من السطر الأول إلى السطر الأخير، كما في الجزء الأول من" الأيام". يمكننا القول أن ثمة قريحتين في إبداع طه حسين، قريحة نقدية تحتل معظم إنتاجه الهائل الذي استمر خمسين سنة، وبالضبط من عام 1915 إلى عام 1965 أو 1967 إذ أظن أن الديوان الأخير "كلمات" يعود لعام 1967. والبعد الآخر لهذه القريحة النقدية، قريحة سيرته الذاتية التي نجدها في جميع مؤلفاته بما في ذلك المؤلفات النقدية، والمؤلفات الاستذكارية عن الإسلام"[15]. والملاحظ هنا أن مصطلح "السيرة الغيرية" غائب تمامَ الغياب عن جاك بيرك بقصد أو بغير قصد، ذلك أنه يجعل أعمال طه حسين ذات الانتماء إلى فن التراجم والسير، يجعل منها كلها سيرة ذاتية وفي الأدب سير ذاتية كما أن فيه سيرا غيرية، وكان بإمكانه أن يكتفي بمصطلح (السيرة) وانتهى الأمر. والأساس في الأمر هو هذه الدراية النقدية عند جاك بيرك بأجناس الأدب، إلى غير ذلك مما أبدع فيه جاك بيرك في تحليل أدب طه حسين، والذي ينتقل فيه هذه المرة إلى التحليل النفسي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

للنصوص الأدبية.حيث يلاحظ بيرك أن الأنا أو الذات هي دافع طه حسين إلى التجاوز في الكتابة، وأن التجاوز قد مثله كتابه"الشعر الجاهلي".

وإذ يقرّ جاك بيرك بصعوبة ترجمة أدب ونقد طه حسين، يقرّ أيضا أن الغرب لا يعرف لطه حسين إلا كتابا واحدا من بين الستين كتاب التي ألفها طه حسين، وأعطى على تلك الصعوبة في الترجمة مثالا، بالجزء الأول من كتاب الأيام، بل ويتعمق بعد ذلك في ضرب الأمثلة المختلفة، وفي الأخير يعطينا ملخصا لهذه المقالة يعترف فيها بالقريحة" الشيطانية" كما يسميها هو نفسه، والتي يضيف عليها بأنها مليئة بالحيوية لطه حسين، على الرغم مما أخذه عليه العقاد على طه حسين، حسب ما يذكره بيرك، من نقص للخيال في روايات طه حسين، ومن حديثه فقط في رواياته عن نفسه، كما يعلق على ذلك جاك بيرك مفندا هذا الرأي للعقاد، ومعتبرا إياه إجحافا في حق طه حسين، في هذا المأخذ وفي بقية المآخذ التي أخذها العقاد على طه حسين، وهي عديدة، ومن ثمة يبدو جاك بيرك في هذا المقال مدافعا عن طه حسين بقوة تحاكيها قوة العلاقة بين طه حسين والثقافة الفرنسية التي كان جاك بيرك أحد مخرجاتها وسفرائها، مهما بدا في ثوب المستشرق أو المستعرب زمنا طويلا.

في دراسته عن المسرح العربي والموسومة بـ" أين المسرح العربي من عالم اليوم" [16] يبدأ بيرك بالمسرح التاريخي عند العرب، وبالضبط حالة المسرح المصري المعتمد على التاريخ، ولذلك مثلت تراجيديا التاريخ تراجيديا الواقع المخيب للوطن العربي في العصر الحديث، حسب ما يراه جاك بيرك. وبينما يقرّ جاك بيرك بأن "التاريخ مسرح على سبيل المجاز، بينما المسرح تاريخ بشكل وهمي"، وهو يستذكر موضوعات تاريخية للمسرح العربي الحديث من خلال مسرحيات بعينها تفضي بموضوعات تجمع بين الواقعي والتاريخي، من مثل علاقة الخليفة بعرابي الثائر وثورة المهدي في الجنوب السوداني وغيرها، ويبدو بيرك متعمقا في النقد المسرحي (الدراما)، إذ يكتشف– حسب رأيه – عن بطلان التوافق بين النماذج التاريخية المسرحية وواقع العالم العربي آنذاك، مما أفقد الأعمال المسرحية العربية نجاحها وتأثيرها على الجمهور، وهذا لا يمنع من وجود مسرحيات ناجحة في نظره من مثل مسرحية " قدموس" لسعيد عقل ومسرحية " السد" لمحمود المسعدي التونسي، وإن كنا نعرف السد رواية أكثر من أن تكون مسرحية، بل ويحلل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

بيرك لماذا كانتا ناجحتين؟ فببساطة يجيب: لأنهما تجنبتا ما كان يتصف به المسرح العربي من فقدان للون التراجيدي المأساوي الذي يحاول العرب كل مرة تعويضه في المسرحية بالغناء، الذي يعتقد العرب على مرّ عصورهم الأدبية أنّه مولّد للشفقة والهلع، بل وبيرك نفسه في تعريف الطرب واللحن يرجع إلى المعجم العربي بمفاهيمه التقليدية وتعريفاته الموروثة [17] وأما السبب الثاني في هذا الإخفاق للفن المسرحي العربي الحديث فيرجعه بيرك إلى المظهر الجمعي الذي يتحكم في أدب العرب، والذي يمثله تأثير الأدب الرفيع عند العرب تماشيا مع المثل العربية العليا، وهو ما لم يفقده أدب العقاد والمازني مما يعبر عنه بالنزعة الفردانية في مجال الشعر مثلا؛ ولذلك يعتقد بيرك أن كشكش بك الريحاني العربي لن يوازي شارلي شابلن، على الرغم من أن الأول يستمد الوحي ذاته من الثاني من منظور جاك بيرك. وهو ما انعكس على أداء الممثلين الذين، على الرغم من ذلك قد أحبهم الجمهور، فهم يتصرفون بدافع جماعي لا فردي.

يتحدث بيرك بعد ذلك عن طابع ودور موسيقى الحنين الموروثة في الشعر العربي، ومن ثمة في المسرح العربي؛ وهي تعبر عن علاقة الحضريين بماضيهم البدوي، فلقد عالج بيرك هذه المسألة التي تحيل إلى البداوة العربية في بعض المجتمعات العربية، بما في ذلك المدن الكبرى كدمشق العروبة مثلا[18]، في رأيه مما جعلها تنزع نحو البداوة وترفض التقدم. ويستثني منها ألحان سيد درويش، ويعطي على ذلك عدة أمثلة من هذه الألحان بمن غناها من المغنيات والمغنين في المسرح، وهو ما انجرت إليه حتى الأفلام العربية التي تقدم للجماهير الغفيرة.

لقد انتقد بيرك بحدة كل ما تم تقديمه في تلك الفترة من أنواع المسرح العربي، وعلى رأسها التراجيديا التي انحطت في نظره إلى مستوى الميلودراما والكوميديا إلى المستوى الهزلي، بل ويعتبر "السكتش القروي" بطابعه الواقعي وخفة الروح البلدية-كما يسميها-ردا على تصنع الدرجة الوسطى.

هذا ويعترف بيرك بنجاح المسرح والسينما العربية فيما بعد هذه المرحلة، وذلك نتيجة عاملين اثنين: الأول هو الاتصال والتأثر بالمسرح والسينما الغربية، وثانيا تعويض الطابع الواقعي الاشتراكي لهذه الأعمال بالإعلاء من شأن الفلكلور المحلي، وجعله في مقام المثالية؛ فالفلكلور العربي البارز في الأعمال المسرحية والشعرية يراه بيرك مثالا للتجديد المتغاير عن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

الكلاسيكية، يقول:" إذا كانت الحركة التي قامت إلى بعث الفلكلور تفترض زعزعة الكثير من أوضاع التراتب، الجمالي والاجتماعي، في سبيل إعادة إطلاق حقيقة شعرية مستقلة عن كلاسيكية الفصحى"[19]، وهو ما وجده بيرك في أفلام المغرب العربي، برغم الرقابة الفرنسية على كل ما هو سياسي آنذاك. ومع ذلك يعتبرها بيرك ناجحة، معتبرا المحلية وسيلة للدفاع عن الهوية والذات ومجابهة الدخلاء، وهو الالتزام الحقيقي في مجال الفن، مما يجعله في نظر بيرك بديلا عن سياسة التثقيف الشعبي لدى الأجنبي المخفقة؛ ولذلك يعتبر بيرك ولاء العرب لمقتضيات علم الجمال فيما تلا الثورة المصرية من خلال أعمال درامية كثيرة قد أدى إلى الفشل، على الرغم من انطلاقها من فن اجتماعي، وأيضا على الرغم من منبعها من عواطف صادقة؛ والدليل على ذلك التقليد والمحافظة والتقعر اللغوي. ومع ذلك فقد أعقبه مسرح ناجح، ومن أمثلة ذلك مسرح شوقي وعزيز أباظة وسعيد عقل وصلاح عبد الصبور والشرقاوي وبشر فارس وغيرهم.

ينتقل بيرك بعد هذا إلى الحديث عن مسرح توفيق الحكيم الذي مزيته، حسب بيرك، أنه لم يكن من استكشاف كافة أنواع المسرح المعروفة، ويقدم على ذلك أمثلة وشواهد مسرحية ليؤكد فكرته، ويقدم أيضا تعليلات منطقية، فهو يعده نجاحا جديرا ينتقل منه إلى الحديث عن النجاح العربي في فن السينما والمسرح الشعبي الذي خلق— على رأي توفيق الحكيم، للعرب لغة ثالثة كما ينقل عنه جاك بيرك[20]، ويقر باستفادة المسرح العربي من جميع قيم التجديد في المسرح العالمي، ومستفيدا في نفس الوقت من التراث الوطني، مما يؤهل هذا المسرح العربي إلى السير قدما نحو العالمية التي يحلم بها كل أدب وكل أديب.

هكذا إذن، ووفق نظرة شمولية، يعالج جاك بيرك تطور المسرح العربي المعاصر منذ نشأته إلى ارتباطه بالسينما، وبجميع أشكاله واتجاهاته، كما لا تعوز بيرك الإحاطة بأهم كتاب المسرح العربي، كما لم تعوزه المعرفة بالانتقادات التي كان يوجهها الأدباء العرب المعاصرون لبعضهم حين تحدث عن طه حسين والعقاد مثلا.

المقالة الموالية أكبر حجما من بقية المقالات، وهي منشورة في مجلة المجلة المصرية، وهذه المقالة ترجمها إلى العربية الأديب عبد الصبور شاهين، وجعلها تتربع على أكثر من عشرين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

صفحة من القطاع الكبير في المجلة. ولعل عنوانها الشمولي (في الأدب العربي المعاصر)[21]، هو ما أعطاها هذا الحجم، فقد عالجت الأدب العربي شعره ونثره ومسرحه وما إليه من فنون. ولهذه المقالة من التنوع ما ليس لغيرها من المقالات، فهي مقدمة من كتاب (مختارات من الأدب العربي المعاصر) وتحتوي على العناوين الفرعية التالية: الأسلوب هو المستوى المتميز للمجتمعات العربية— قيمة القديم — حكم الحاضر – رواد وأدباء — الأدب والحقيقة — الأدب الاجتماعي والأدب الخالص— اللغة من حيث هي مشكلة — سن الرشد — مختارات ومواجهة — تقويم ...إلخ.

وهذه المقالة تحدث فيها جاك بيرك عن مجموعة كبيرة جدا من الأدباء العرب المعاصرين نذكر منهم: ساطع الحصري، طه حسين وأمين الخولي من خلال الاستشهاد بهم في قضاياهم الفكرية ومواقفهم من القديم في الفكر والدين والأدب، كما يذكر المعلم بطرس البستاني واليازجيين وجورجي زيدان من خلال الحديث عن ريادتهم التجديدية في التاريخ والأدب والصحافة والرواية، ومن خلال تتلمذ بعضهم عن الغرب، فهذه حسنة من حسنات التجديد عند العرب حسب ما يذهب إليه بيرك[22]. ثم يذكر الجواهري الشاعر ويستحضر له نصا من مقدمة ديوانه كمثال عن الإنسان العربي الجديد. ويذكر تحت عنوان فرعي"رواد وأدباء" الكثير من الأدباء العرب المهاجرين إلى أمريكا، وبقية المهاجر كجبران خليل جبران وكتابه "النبي" بطابعه السريالي، ويبدو جاك بيرك شديد الإعجاب به، ويذكر ميخائيل نعيمة من خلال الطابع الوعظي والعجائبي في أدبه. ويذكر أمين الريحاني وشفيق المعلوف وإيليا أبو ماضي من الأدباء المهاجرين. كما يذكر في معرض الموازنة بين المقلدين والمجددين كلا من حافظ إبراهيم ومطران خليل وأحمد شوقي، ومحمود سامي البارودي ومعروف الرصافي وجميل مردم شاعر الشام.

ونراه مرة أخرى يعيد الحديث عن طه حسين معتبرا إياه بطلا حاملا للواء النزعة العقلية في أدب البحر الأبيض المتوسط. وهو ما يؤكد ملاحظتنا السابقة بالإعجاب الشديد الذي لا يخفيه جاك بيرك بطه حسين.كما يذكر العقاد المتأثر بالأدب الأنجلوسكسوني كمقابل لطه حسين المتأثر بالأدب الفرنسي. ويذكر أيضا نزار قباني ونازك الملائكة ممثلين عن شبيبة الشرق،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

مهما تعددت مفاهيم الشرق عند بيرك استقاء من فاوست أم من الأخبار القائلة بأن الشرق هو أرض إبراهيم، أو حتى من انتماء العروبة للشرق[23]، ويأتي بمقطع شعري لنازك الملائكة يصبّ في موضوع الثورة في علاقتها بالانفصال. ولا يغفل عن أدباء المغرب العربي فيذكر من المغرب علال الفاسي ممثلا للماركسية في الشعر العربي المعاصر، ومعه جميل مردم المتغني بغوطة الشام، ويزيد عليه الشاعر أبا القاسم الشابي من خلال مقطوعة شعرية له مكونة من خمسة أبيات شعرية يوثقها له ويعلق عليها، بل ويقارن بين هذه التجربة الثورية الواقعية، وبين تجربة شعراء غربيين من أمثال "موباسان Maupassant " و"تشيكوف Tchekhov " و"رامبو" Rambo و"بودلير" Charles Baudelaire و"مياكوفسكي" Vladimirovitch Maïakovski. ثم ينتقل إلى الحديث عن التجربة الروائية عند الشرقاوي، ورشدي صالح، ويوسف إدريس، وصدقي، وما ينتج عن أدبهم من تأثر بالواقع العربي المصري والعراقي وحتى الإفريقي عند الأدباء العرب الأفارقة. ومنها ينتقل إلى الحديث عن الأدب المتأثر بالأسطورة كما عند البياتي والخميسي وعبد المالك نوري وفؤادي تيركلي في العراق، وصلاح عبد الصبور في مصر.

لقد فصل بيرك في مسألة التمثيل على الواقعية العربية في السرد فقال: "فالمدرسة الواقعية قد أعطت، في السنوات الأخيرة، في مصر، روايتي الشرقاوي، وقصص يوسف إدريس... وقصص أحمد رشدي صالح واضع نظرية الفولكلور. وسوف أؤكد الآن على كاتب عمالي أصيل هو محمد صدقي، فهو قد ولد في دمنهور، من عائلة فقيرة. وقد طرد من المدرسة الابتدائية لأنه لا يستطيع أن يدفع رسوم دراسته..."[24] مما يدلل على أن التحليل الذي يعطيه بيرك للنصوص الأدبية قائم على المقاربات السياقية، وإلى حد كبير على الدوال (إن جاز لنا هذا) الميتانصية، على عادة المنهجين التاريخي والاجتماعي في تحليل ومقاربة الظاهرة الأدبية.

تحت العنوان الفرعي: (الأدب الاجتماعي والأدب الخالص) يناقش جاك بيرك مسألة الإمارة الشعرية عند شوقي، وما يقابل هذه الإمارة من معاني الجمال في الأدب، ومنها يوازن بين الشعر من جهة وبين الرواية والمسرح من جهة ثانية، ويعرج في مجال الرواية على نجيب

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

محفوظ باعتباره أكمل نموذج في الرواية العربية حسب رأيه، بل وهو جاك بيرك ذاته من يلقبه بـ" بول بورجيه Paul Bourget " القاهري. كما يكثر بيرك من ذكر الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري ممثلا للأدب الحماسي الثوري، الذي استفاد من كل المشاعر العربية الطيبة على رأي جاك بيرك نفسه. يفعل ذلك ثم يعالج قضيتي "الفن الملتزم" و"الفن للفن" في الشعر العربي الحديث والقديم، وبعدها يذكر أيضا بشر فارس ويستحضر له أبياتا من الشعر، كما يذكر أدونيس من خلال ديوانه"مهيار الدمشقي".

يرجع بيرك مرة أخرى في هذه المقالة الدراسة للحديث عن تلقي الأدب العربي، فيقدم إحصائيات ترجع لسنة 1958 عن تلقي المصريين للأدب، وبالضبط تلقيهم لنصف رقم الاستعارات من دار الكتب المصرية والبالغ عددها مائة وأربعين ألف استعارة في المجال الأدبي، كما يضيف أن أربعين ألف استعارة كانت للرواية وحدها.

ينتقل بعد ذلك للحديث على المجلات الأدبية، ويجعل من مجلة "الأديب" القديمة في بيروت تستمر في شكل مجلة "الأديب" التي تميل إلى المصريين، بالإضافة إلى مجلة "الآداب" وهي للنثر والمجلة الشعرية "الشعر"، ويعدد مجموعة من المجلات الأدبية في الوطن العربي، ويرفق هذا الحديث بحديث آخر عن أهمية الصالونات الأدبية، والمؤتمرات، ويغوص مرة أخرى في مسألة الفن الملتزم، وعن الكثير من اتجاهات وخصائص الأدب العربي المعاصر من وجهة نظر اجتماعية ومن وجهة نظر مقارنة.

وتحت العنوان الفرعي (سن الرشد في الأدب العربي) تحدث بيرك عن النزعة الإنسانية في الأدب، كما تحدّث عن الإمبريالية كمقابل للماركسية في الأدب العربي الحديث و المعاصر، بل وذكر كلا من فخري البارودي السوري والدكتور هيكل المصري أديبا وسياسيا ممثلين لمثل هذه الجدليات، وكل مرة لا ينفكّ عن ذكر طه حسين وتوفيق الحكيم مرات ومرات، وهو الأمر اللافت للانتباه، بينما لم يفعل ذلك حين تحدث عن محمود أمين العالم وعن سلامة موسى وعن الصراع بين الماركسيين والوجوديين في الأدب العربي المعاصر، بل تحدّث عن صراع من جهة أخرى، حين تكلم عن مقالات الوردي ممثلا للشيعة. وأضاف إلى كل هذا كلاما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

تصنيفيا لبعض الأعمال الأدبية من خلال حديثه عن كامل حسين خطيبا وعن حسين فوزي صاحب كتاب السندباد المصري.

لم يغفل جاك بيرك في هذا المقال الحديث عن ترجمة الأدب عن الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وعن الأعمال الأدبية المكتوبة باللغات الأجنبية، وأعطى على ذلك أمثلة عن الكتاب العرب باللغة الفرنسية من خلال حديثه عن كاتب ياسين وجورج شحادة، وأخرى عن الكتاب العرب باللغة الإنجليزية كجبران خليل جبران، ويبدو أن المثال الأجمل عند بيرك فيما يتعلق بأدب جبران دائما هو كتاب"النبي". وفي نهاية الجزء الأول من هذا المقال نرى بيرك يقرر أن"العرب الذين أفادوا من الاتصال بالعصر الحديث، وهو الذي يطبع أنماط الحياة وأنماط التعبير بطابع العالمية، هؤلاء العرب هم من ناحية أخرى ضحايا هذا الاتصال.فهم— إذن— يوحدون نسقهم مسايرة لروح العصر. والحق أنهم لا يستطيعون أن يباينوه. إذ كان عليهم لكي يتحرروا أن يتوافقوا مع الآخرين، بل أن يصبحوا هؤلاء الآخرين "[25] ويقصد بالعصر الحديث ما أتاحته الحضارة الغربية المعاصرة مادية أكانت أم ثقافية، وعلى رأسها المنجز الأدبي والمنجز النقدي وحتى العلمي والفلسفي.

3/ جاك بيرك والشعر العربي:

فيما سلف لاحظنا اهتمام جاك بيرك بالشعر العربي المعاصر، من خلال العديد من الشعراء المعاصرين الذين درس مذاهبهم واتجاهاتهم وأشعارهم من خلال مقاربات يمتزج فيها النفسي بالاجتماعي بالأسطوري، ومن بينهم نازك الملائكة وأبي القاسم الشابي وأدونيس، وغيرهم من الشعراء. لقد كان ذلك تحديدا في مقالة لم تكن مخصصة للشعر بقدر ما كانت مخصصة للأدب العربي عامة؛ ولكن هذه المرة نقف مع مقالة جعلها جاك بيرك للشعر تحديدا، ولكن قبل المرور إليها نعرج على بعض الملاحظات التي مهدت لبيرك حتى يغوص ففي دراسة وافية خاصة بشاعر أو شاعرين اثنين دون غيرهما.

لقد لفت انتباهي أن بيرك يعتبر الأدب ومنه الشعر سواء أكان قديما أم حديثا ومعاصرا، ظاهرة اجتماعية تعبر عن الحياة الإنسانية وتعبر عن تفاعل الأديب مع وسطه الاجتماعي ومنه الشعر؛ ولذلك تراه حين يتحدث عن نشاط اجتماعي في أزقة القاهرة وحواريها يدخل الشعر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

في الحسبان، فمثلا عندما تحدّث عمّا يباع في شوارع القاهرة من طعام قال عنه:"الأطعمة الخطرة التي يتجول الباعة بها في أزقة الجمالية، والتي أطلق عليها حافظ إبراهيم كلمة "غيره" عندما كان يتنزه مع أحمد شوقي الأرستقراطي ذات يوم في سيدنا الحسين فسأله شوقي: ما هذا؟

أجابه حافظ إبراهيم: "هذا غيره" إيماءً إلى بيت الشعر المعروف: من لم يمت بالسيف مات بغيره"[26]

لقد أدرك بيرك أن الشعر مختلف تماما في صيرورته التطورية عن النثر بما في ذلك المسرح والقصة والرواية فقال: "إن الشعر العربي قد توصّل حقيقة إلى المحافظة على مجال يستمر فيه الحوار القديم بين الرجل والمرأة والطبيعة، ولكن لم تكن الحال على ذلك بالنسبة للقصة والمسرح والشاشة"[27] فالحياة العربية البسيطة والشعبية يسيرها القلب والعاطفة والشعور والذاتية، أكثر مما يسيرها العقل والمنطق والموضوعية الصرفة، ولذلك كان الطابع الغنائي والوجداني للشعر هو الغالب على ضمان تصوير الحياة العربية في استمرار ماضيها بحاضرها حسب ما يراه جاك بيرك.

في مقال له حول شعر بدر شاكر وعلي أحمد سعيد (أدونيس) الموسوم بـ" ديالكتيكية الذات والطبيعة قراءة في شعر السياب وأدونيس" يصنّف جاك بيرك العمل الإبداعي وخاصة الشعري منه، على أنّه عمل يجري بين الإنسان والطبيعة يقول: "إن كان صحيحا أنّ العمل شيء يجري بين الإنسان والطبيعة، فماذا نقول عن الشعر؟ هل نقول إنه شيء لا يجري، أو لا يوجد ثانية، أم أنه في الإنسان والطبيعة معا؟ ولعلّ هذا أكثر صحّة بالنسبة إلى بعض اللغات كاللغة العربية، حيث يتمتّع الشعر بنوع من المشاركة الجوهرية"[28] وهو هنا يجعل ذلك خاصا باللغة العربية والشعر الناتج عنها. كما يربط بين الطبيعة الأسطورية للغة العربية، وبين الشاعرين اللذين سيدرسهما وهما: السياب وأدونيس فيقول: "ولأن هذه اللغة...تحمل معها مراحل قديمة يمكن أن نصفها بما قبل تاريخية، أسطورية إن شئتم، فهي تحمل بالإضافة إلى ذلك الميثولوجية، وذلك من الصحة بحيث إن الشاعرين اللذين سندرسهما الليلة هما شاعران أسطوريان"[29]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

ليس لأنهما استخدما الأسطورة القديمة في شعرهما بقدر ما تمثلا الأسطورة وكان في حدّ ذاتيهما أسطورتين شعريتين عربيتين معاصرتين، وكان شعرهما أسطوريا بأتم معنى الكلمة.

هذا المقال لا يتجاوز السبع صفحات، طبعا بحجم أوراق المجلات من القطاع الكبير، ومع ذلك لا يبرح فيه جاك بيرك المكوث من حين للآخر عند المنهج المقارني، كما بيّن في حديثه عمّا سمّاه بعجز اللغة وظهور شعر الغياب عند مالارميه Étienne Mallarmé الغربي في مقال يفترض أنّه قد تمّ تخصيصه للسياب وأدونيس العربيين. بل ولا يبرح كذلك المنهج الاجتماعي، من خلال تصريحه في هذه المقالة بأنه سيدرس (الطبيعة في الثقافة والمجتمعات العربية)[30] من خلال السياب وأدونيس وشعرهما العربي المعاصر، هذان الشاعران الكبيران في نظره، فيبدأ بالسياب من خلال مجموعته (أنشودة المطر) فيحدد أقسامها، كل قسم والمكان الذي قيلت فيه، سواء في الكويت أم في غيرها. وترى بيرك يغوص وهو يعلق على الدواوين في استكشاف سياقات الغربة والألم والاغتراب والضياع والاستلاب والنفي والابتعاد والانفصال عن القرية، وفقدان الشخصية مدللا على ذلك بعناوين القصائد من المجموعة الأولى دون أن يأتينا بمقاطع من النصوص الشعرية، مكتفيا بقراءته هو لهذه النصوص، والمشكل أنه يربطها بتاريخ الشرق. كما يربطها بفوضى الثلاثينيات وسياسة الدولة التسلطية الملكية والاستعمارية البريطانية، وحتى الصراع بين الإقطاعيين واضطهاد القبائل على حد تعبيره.

المقاطع الشعرية التي يوردها بيرك للاستشهاد من مجموعة تالية تصبّ في خانة الطبيعة ومدلولاتها: القرية جيكور والمدينة، ويربط ذلك بموضوع البعث الميثولوجي، ويقدم لنا تفسيرات وتحليلات أخرى ذات منحى أنثروبولوجي تتعلق بما يسميه بالعنصر الرحمي، والواقع البدئي والعناصري، وينسب هذه المصطلحات للسميائيين القدامى (من الكيمياء)، كما يظهر المنحى النفسي في حديثه عن النرجسية التي استخرجها من مقالات أدونيس عن السياب.

هذا وقد ظهر المنحى الكيميائي في حديثه عن العناصر الأربعة الماء والتراب والهواء والنار، وهو يتحدث عن جدلية القرية والمدينة السيابية. وتراه لا يبتعد كثيرا عن التحليل الأسطوري من خلال حديثه عن طائر الفينيق ويربط ذلك بتقدمية السياب، بل ويجعل من هذا الأخير ذا نظرة سياسية واجتماعية على اعتبار انتمائه للحزب الشيوعي واعتناقه للإيديولوجية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

الاشتراكية، وإن كان يلمّح إلى ذلك ولا يذكر إلا تقدميته، ثم تأتي موازنة بيرك للسياب بشعراء مجلة شعر في أواخر الخمسينات وبداية الستينات، وهم إيليا حاوي ويوسف الخال وأدونيس .

كما يعرج بيرك على الأثر والرمز المسيحي في شعر السياب، ويتحدث عن التنوع المذهبي والديني والطائفي في الشرق وفي العراق تحديدا، ويستشهد بمقاطع من قصيدة"المسيح بعد الصلب". بعد ذلك يتقدم بيرك بملاحظاته بخصوص عجز الترجمة إلى الفرنسية عن المحافظة بجمال وروح النص الشعري السيابي المترجم في هذه المقالة إلى الفرنسية. أضف إلى ذلك أنه يلاحظ في هذه القصيدة آثار الشعر العربي القديم في موازنة بين هذا النص وبين غيره من النصوص القديمة، أو البحث عن النص القديم الغائب والمتواري في النص السيابي عبر تقنية التناص في المعنى، وذلك عند امرئ القيس سواء في موضوع تمجيد المرأة، أو (في انحلال العاصفة وتلألؤ المطر الظافر)، كما يعبر بيرك عن ذلك، ونجد ذلك أيضا عند امرئ القيس. ويخرج عبر هذا التحليل حتى إلى الحديث عن مأساة الحب وتراجيديته، ويدخل ذلك في ترجمة عبد الرحمن بدوي للتراجيديا، وهو دليل الاستطراد الذي تحدثنا عنه في نقد جاك بيرك السابق، كما يخرج أحيانا إلى النقد الفني من خلال حديثه عن بلاغة الاستعارة في النص السيابي، وعن دلالات الألفاظ كما دل المطر مثلا على الثورة. وهو يجعل من هذه القصيدة رائعة.

في حديثه عن أدونيس يجعل منه كبقية الشعراء (يغني الذات في وجه العالم) على حد تعبيره، ويمثل بالسياب كدليل على ذكره بقية الشعراء، عائدا إليه مرة أخرى، ولكن سرعان ما يرجع ليتحدث عن ديناميكية (ستفجر التعارض بين الشاعر والكون بين الذاتية والطبيعة) عند أدونيس، ويستطرد مرة أخرى في ربط أغاني مهيار الدمشقي بالديناميكية التي يحدد مفهومها وأصولها مطبقا إياهما على"أغاني مهيار الدمشقي"لأدونيس.

يتحدث أيضا عن مجموعة أخرى لأدونيس هي" كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل"، ولكنه هذه المرة يستحضر على سبيل الاستشهاد بمقاطع شعرية عديدة يحللها، وهو ما لم يفعله أثناء التعليق على"أغاني مهيار الدمشقي". ويعيد ذكر فكرة السيمياء (الكيمياء) التي ذكرها في معرض تحليله للسياب، ولكنه كل مرة تراه يقارن ما يتوصل إليه من تحليلات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

عند أدونيس بما يقابله في الشعر الأوروبي، من مثل قوله في موضوع التحول الكيميائي عند الشاعر:"هذا أمر عادي بالنسبة إلى تفتيشات الشعر الأوروبي المعاصر"[31] بل ويربط حتى بين قصر القصائد والعلاقة بين ذاتية الشاعر والطبيعة.

مرة أخرى يربط بين إشارات ابن سينا وقصيدة لأدونيس عن الإشارة، ويعطيها مفهوم السداد والكلمة المفتاح، كما يتحدث عن الغموض في شعر أدونيس من حيث كونه خالقا للفراغ.

يعود بنا تارة أخرى إلى التحليل اللغوي من خلال حديثه عن التلاقيات اللغوية في قصيدة (أقاليم الليل والنهار) ويجعل منها مادة الشعر المعاصر (التلاقيات)، كما يجعل من مآخذ أدونيس على السياب في أنه لم يخلق لغة ثانية ولم يذهب من حيث الحداثة بعيدا، حتى أن السياب على رأي أدونيس قد بقي من حيث الحداثة في مرحلة متوسطة بين عهد وآخر على حد تعبير جاك بيرك.

يحذر بيرك من بقاء الشعر حارسا للغياب دائما، على الرغم من كونه كذلك، ويقترح وجوب ملئه لأنه في نظره متى تجاوز حده لم يعد شعرا، ويصرح بأن هذا الشعر عند مجموعة من الشعراء بإمكانه بلوغ قراء الطليعة في المشرق، ويقرّ بأنه يحتفظ بشعريته في اللغات الأوروبية وإذن فقد بلغ مستوى العالمية[32].

ويختم جاك بيرك مقاله بالتعليق على المجموعة الثالثة لأدونيس (المسرح والمرايا) ليجعلها تقدما كبيرا وخطوة أبعد على حد تعبيره، فمهما كانت القصائد أشد قصرا، فهي أكثر فرادة ويجعل لهذه اللغة الشعرية ثلاثة أنماط هي: (نمط الحوار الذي تشارك فيه الجوقة أحيانا)، ومشاهد قابلة للتمثيل والإنشاد، ثم هناك أحلام ومرايا. وفي الأخير يجعل من شعر أدونيس ملخصا وحاشدا لقافلة التاريخ الشرقي. وهو بهذا يسير سيرا تاريخيا في منهجه، يتتبع الظاهرة الأدبية من خلال ترتيب إنتاجها ويراقب تطورها، ولو ضمن الديوان الواحد بما احتوى عليه من مجموعات متفاوتة في الجودة والإصابة الشعرية على رأي القدماء، ويبقى المنهج الرئيس عند جاك بيرك هو المنهج الاجتماعي الذي لا يعدم الاستفادة من بقية المناهج التي ذكرناها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

الخاتمة:

يتّضح جليّا أن بيرك يظلّ مستعربا غربيا بامتياز، من خلال ميله للنماذج الأدبية المتأثرة بالغرب وعلى رأسها طه حسين رحمه الله، كما يبدو ميّالا في أحكامه النقدية إلى النصوص التي استفادت من التطور الأدبي الغربي، سواء في المسرح أو الرواية أو السيرة الذاتية، ك (الأيام) لطه حسين وغيرها، وهو ما يؤكد عليه الصفة الاستشراقية والغربية أيضا باعتباره مفكرا فرنسيا.

سيطر المنهج الاجتماعي على مقاربة جاك بيرك في تحليل ونقد الأدب العربي الحديث والمعاصر شعرا أكان أم نثرا، مهما حاول أن يطعمه ببعض آليات المنهج النفسي والمنهج الأنثروبولوجي. وهو ما رسّخ أيضا ملاحظة الطابع الاشتراكي الذي يسيّر نظرة جاك بيرك للأدب العربي المعاصر.

المنهج الثاني الذي ما يلبث دائما يظهر ضمن المقاربة الاجتماعية لبيرك للأدب العربي المعاصر، هو المنهج المقارني، وليس غريبا على ناقد ومفكر يمتلك عناني اللغتين العربية والفرنسية حين يتصدى للأدب العربي، أن يقارن بينه و ببين الأدب الفرنسي كلما اقتضت الضرورة أو المناسبة هذه المقارنة، فيبدو أن مقاربة بيرك للأدب شاملة ومتداخلة المناهج المتقاربة، على الأقل السياقية الشهيرة منها (التاريخي والنفسي والاجتماعي والمقارني وأحيانا الأسطوري والأنثروبولوجي).

الملاحظة الموالية هي تفاقم ظاهرة الاستطراد عند جاك بيرك، حتى وهو يطبق منهجا اجتماعيا تحكمه آليات الوصف وتلفه عباءة المنهج التاريخي، وفي هذا الاستطراد تبرز المقارنة تارة ليس بين أدب وأدب آخر، بل حتى بين أدب وفن أو علم أو غيرها في لغة أخرى، وتظهر أيضا الموازنة تارة أخرى بين أدب عربي وأدب عربي آخر على امتداد الزمان بين القديم والحديث، وحتى المكان (الجغرافيا العربية)، كما ينم ذلك عن الاطلاع المتعمق والشامل والمحيط للأدب العربي القديم والحديث لدى بيرك، وأحيانا نرى لديه ذلك التنويع في الدراسة بين النثر والشعر، وبين القدماء والمحدثين، حتى ضمن الدراسة الواحدة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

الهوامش:

1 – أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، د ط، 1998، ص 510،511.

2– أحمد سمايلوفتش: المرجع نفسه، ص 511 .

3– جاك بيرك: إعادة قراءة القرآن الكريم، ترجمة وائل غالي شكري، تقديم أحمد صبحي منصور، دار النديم للصحافة والنشر، بيروت لبنان، د ط، د ت، ص 11 .

4– جاك بيرك: التاريخ والحلم، مجلة مواقف، بيروت لبنان، عدد 01، أكتوبر 1968، ص 17 .

5– جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 23 .

6 – جاك بيرك: الشرق الثاني (حوار)، مجلة مواقف، بيروت لبنان، أكتوبر 1970 .

7 –جاك بيرك:زجل في سبيل غرناطة مرتقبة، ترجمة بكري علاء الدين، مجلة الملتقى، المغرب، عدد 12، ديسمبر 2004، ص 115.

8 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 114 .

9 – جاك بيرك: نحو حوار أندلسي الأبعاد، ترجمة أبو بكر بنور، مجلة مواقف، بيروت لبنان، عدد 58، أفريل 1989، ص 29، 30 .

10 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 31 .

11 – جاك بيرك:في الأدب العبي المعاصر، ترجمة عبد الصبور شاهين، مجلة المجلة، مصر، عدد 117سبتمبر 1966، ص 12 .

12 – جاك بيرك: نحن وطه حسين، ترجمة مهاة فرح الخوري، مجلة المعرفة، سوريا، عدد 174 أغسطس 1976، ص 47 .

13 – جاك بيرك: أين المسرح العربي من عالم اليوم، مجلة شعر، بيروت لبنان، عدد 63، أكتوبر 1967، ص 122 .

14 – جاك بيرك: نحن وطه حسين، مصدر سابق، ص 53 .

15 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 53، 54 .

16 – جاك بيرك: أين المسرح العربي من عالم اليوم، مجلة شعر، لبنان، عدد 36، أكتوبر 1967، ص 122 .

17 – جاك بيرك، العرب من الأمس إلى الغد، ترجمة علي سعد، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت لبنان، د ط، 1982، ص 304 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161

18 – جاك بيرك، المصدر نفسه، ص26 .

19 – جاك بيرك: المصدر نفسه: ص 273 .

20 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 278 .

21 – جاك بيرك:في الأدب العربي المعاصر، ترجمة عبد الصبور شاهين، مجلة المجلة، مصر، عدد 117 ، سبتمبر 1966، ص 12 .

22 – جاك بيرك: العرب من الأمس إلى الغد، مصدر سابق، ص 264 .

23 – جاك بيرك: ا لمصدر نفسه، ص 414، 415 .

24 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 286 .

25 – جاك بيرك: في الأدب العربي المعاصر، المصدر السابق، ص 32 .

26 – جاك بيرك: نحن و طه حسين، مصدر نفسه، ص 49 .

27 – جاك بيرك: أين المسرح العربي من عالم اليوم، مصدر سابق، ص 126 .

28 – جاك بيرك: ديالكتيكية الذات والطبيعة قراءة في شعر السياب وأدونيس، ترجمة خالدة سعيد، مجلة مواقف، بيروت لبنان، عدد 15 مايو 1971، ص 49 .

29 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 49 .

30 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص49، 50 .

31 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 53 .

32 – جاك بيرك: المصدر نفسه، ص 55 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1161